كتب

يتصدّى المفكّر الإيطالي لفهم النزعة التوثيقية التي توجّه البشرية بشكل خفيّ، فالأرشيفات والمكتبات وأجهزة تخزين المعلومات تمثّل عقولاً صامتة توجّه المجتمعات، وبالتالي فإن فهم الكيفية التي تعمل بها هذه الأجهزة هو أولوية معرفية في زمننا هذا

التوثيقية استرجاع القدرة على إنتاج الأثر

أن نشارك في مغامرة فيراريس

شوقي بن حسن

«لماذا علينا أن نترك أثراً؟» سؤال يحضر كعنوان فرعي لكتاب «التوثيقية» للمفكّر الإيطالي ماوريتسيو فيراريس (1956)، وهو سؤال مطروح على قارعة التاريخ الفكري والأدبي ضمن تنويعات متعدّدة: لماذا نكتب، لماذا نؤرّخ، لماذا اختُرعت المكتبات، وقبلها الكتابة والكتبُ، لماذا أَخَذَت الصورة هذا الموقع المحوريّ في عالمنا (...) فما الجديد الذي يقترحه فيراريس ويبرّر وضع كتاب ضخم عنه، وهل أتى - بعد ذلك - بما لم تستطعه الأوائل؟

في الحقيقة، لقد تجدّد السؤالُ نفسه. تجدّد بشكل جذري. ليس بجهد المفكّر الإيطالي، ولا حتى بجهود مفكّري العالم الحديث جميعهم. تجدّد السؤال مع تسارع النزعة التوثيقية على مرأى ومسمع جميع المعاصرين من دون مرافقة فاعلة وواعية من العقل البشري. حدث ذلك في زحمة من التطوّرات التكنولوجية الباردة، والتي لم تكن تهدف - بالطبع - إلى تحقيق أحلام الفيلسوف الألماني باومغارتن أو الموسوعي ديدرو أو الكاتب الأرجنتيني بورخس، بتجميع كل المعرفة في مكتبة أو حتى كتاب واحد. كانت هذه التكنولوجيات قد دخلت فقط سباقاً محموماً للتطوّر من أجل التطوّر ورهانات اقتصادية أخرى، وبـ«ضربة من غير رام» نجحت في تحقيق أمنية سهر جرّاها الموسوعيّون والمُنظّرون والروائيون، ولم يتقدّموا خطوة عملية واحدة.

يُحاكي فيراريس كل ذلك بسرد حكاية في مفتتح الفصل الأول من الكتاب؛ «كتالوغ العالم»، حيث يذكر قصة عالمين بلجيكيين، بول أوتليه وهنري ماري لافونتان، اقترحا في نهاية القرن التاسع عشر إنشاء مؤسسة عالمية تجمع كل الآثار المعرفية للبشرية، أو على الأقل تبنّي خريطة تتيح الوصول إلى أي أثر، وقد أثبتا نظرياً أن الأمر ممكن، بعد أن جرى إقرار توحيد أنظمة التصنيف المكتبية (النظام العشري). مشروعُ سيصطدم بتاريخ أوروبا العنيف طوال النصف الأول من القرن العشرين، وقد عرضه العالمان البلجيكيان على حكومات الدول الكبرى، لكنها كانت مشغولة بالحروب، فضاعت جهود الرجلين حتى توفّيا ورافقهما المشروع إلى المقبرة.

أكثر من ذلك؛ انفجرت المعرفة وتضخّمت في عقود النصف الثاني من القرن العشرين حتى بدا طموح العالمين البلجيكيين مثل يوتوبيا مضحكة. لكن «حلم أوتليه ولافونتان تحقّق بالفعل بعد ذلك بوقت قريب: إنه شبكة الإنترنت»؛ هكذا كتب فيراريس، وهو يفسّر موت المشروع وانبعاثه بشكل جديد.

يرى المفكّر الإيطالي أن العالمين البلجيكيين قد اقترحا جهازاً بيروقراطياً لإشباع حاجة عميقة في نفس الإنسان، في حين أن البشرية تُسخّر مقدّراتها - بشكل عفوي - لتحقيق هذا الهدف، فمن قبلُ جرى اختراع الكتاب كتكنولوجيا جديدة تستوعب المرحلة الذهنية التي بلغتها البشرية، وكذلك جرى اختراع آلة التصوير الفوتوغرافي ومسجّلات الصوت وغير ذلك. كلها أدوات لملاحقة الأثر البشري، لا يحتاج اختراعها تخطيطاً مسبقاً، إنها تظهر في التاريخ كنتيجة لرغبة دفينة.

هكذا يبني فيراريس سردياً إشكالية عمله، ومن ثمّ يبدأ بضخّ شبكة مفاهيم - متأتية من الفلسفة أساساً - لفهم هذه النزعة التوثيقية التي توجّه البشرية بشكل خفيّ، فالأرشيفات والمكتبات وأجهزة تخزين المعلومات تمثّل عقولاً صامتة توجّه المجتمعات، وبالتالي فإن فهم الكيفية التي تعمل بها هذه الأجهزة هو أولوية لعلها تعوّض الأولوية التي انهمك فيها العلم لقرون؛ فهم كيف تعمل الطبيعة.

ورغم أنه يشير في مقدّمة الكتاب (تحمل عنواناً طريفاً؛ «الزواج وسنوات في السجن») إلى أننا لا نحتاج الفلسفة كي نرى ونحصي الأشياء التي تؤثث العالم؛ «القروض البنكية، الكفاءة العلمية، الانتخابات، الثورات، الضرائب، الألعاب، الحروب، البعثات الإنسانية، أسعار المحروقات»، هي أشياء غير مرئية لكنها متداولة ضمن جهازنا المعرفي مثلها مثل «الحصى والأشجار وحبات جوز الهند»، بل إنها أكثر حضوراً من كل تلك الأشياء المرئية. غير أن الحضور حين يغطس في كثافة مرعبة يُصبح أقرب إلى الغياب، وهذا الشعور بات يبرز أكثر فأكثر مع التضخّم المتسارع للمعارف.

من هنا، نبدأ في إدراك أن شيئاً ما بات ناقصاً في علاقتنا بالعالم، فيستدعي لنا فيراريس فرعاً فلسفياً يبدو مهجوراً منذ فترة؛ الأنطولوجيا أو علم الموجودات، فبدونه تضمحلّ روابط كثيرة مع العالم. كما يؤكّد أننا في حاجة إلى شكل معرفي آخر هو الإبستميولوجيا، ويعرّفه بـ«التناول العقلي لما نعرفه»، بحيث إن الأنطولوجيا هي في النهاية حقلُ الذوات (أي ما يوجد) فيما أن الإبستيمولوجيا تمثّل حقل المعرفة بما يوجد.

حسنُ استعمال هاتين المعرفتين هو ما ينقذنا من «انهيار الكائن داخل المعرفة» وفق عبارة رشيقة للمفكّر الإيطالي. وهو يرى أن أحد أسباب تعقّد العالم من حولنا هو الخلط بين وجود الأشياء ومعرفتنا بها، أي الخلط بين الأنطولوجيا والإبستمولوجيا.

مختصر القول هو أن عبورنا للعالم مرهون بالقدرة على التعامل مع مكوّناته وحالات تحوّلها إلى آثار، لكنه يلفت إلى قضية دقيقة تتمثّل في كون عملية التحويل التوثيقي (من موجودات إلى آثار) لا يقوم بها الإنسان الفرد، بل مكوّنٌ غامض، هو عبارة عن عقل جماعي، يسبق كل معرفة فردية ويجعل من المجتمع ممكناً.

يؤكّد فيراريس، في المقابل، أن تطابق معرفتنا بالعالم مع ما يقترحه هذا العقل الجماعي يعني أيضاً خللاً في عبورنا للواقع بما يقتضيه ذلك من تجديد شبكة الآثار التي لا يمكن توريثها كما هي. كل عبور في العالم ينبغي أن تكون الفردية أحد أبعاده، وهو ما يعبّر عنه بشكل طريف بقوله: «إن فرديّتنا ما هي إلا خطأ في التصنيع».

بعد ذلك، ينهض فيراريس بمشروع اقتراح «نظرية عامة للأثر» هي أشبه بخارطة ذهنية لما يتحرّك في الواقع ويوجّهه. يقسّم صاحب كتاب «وداعاً كانط» الموجودات إلى ثلاث فئات؛ الموجودات الطبيعية تلك التي لها حضور في الزمان والمكان بمعزل عن الكائنات المفكّرة، ويسمّى الفئة الثانية بالموجودات الاجتماعية، وهي لا تحضر في المكان ولها حضور زمني مرتبط بتفاعل الكائنات المفكّرة، وأخيراً هناك الموجودات المثالية، وهي لا تحضر لا في الزمان ولا في المكان، كما أنها مستقلة عن الكائنات المفكّرة.

هناك منظومة عفوية تربط بين هذه الفئات وعناصرها. منظومة يحتكّ بها الإنسان يومياً ويتعامل معها ببساطة، لكنها تسحقه في أحيان كثيرة. يضرب المؤلف مثال استعمال ورقة نقدية من دون التمعّن في عمق مفهوم المال، في حين أن عالم المال الخفيّ يمسك بمصائر الناس، وبالتالي لا ينبغي الاطمئنان إلى القدرة على التعامل مع العالم، إذ ينبغي أن تسندها قدرة ترتيبه، وصولاً إلى أخذ الحق في ترك أثر.

في السابق، مُنعت شرائح اجتماعية من تعلّم الكتابة كي تظل بلا أثر، وقد تكون الماكينة السوسيواقتصادية اليوم شكلاً جديداً من أشكال المنع من ترك أثر.

هكذا يفتح كتاب فيراريس نافذة على خطر أن يفقد الإنسان القدرة على إنتاج أثر، يسمّي ذلك بالتوقيع، وبالنسبة له فإن الكتابة لا تزال في عمق كل عملية صناعة أثر، وبهذا المعنى يأخذ عقد الزواج معناه وكذلك سجلّ المساجين، فالعلاقة الطيبة وحدها مثلها من الفكرة الجيدة تظلّ مهدّدة بابتلاع الزمن، والسجين الذي يضيع اسمه من السجل كأنه لم يقترف جرماً. إنها نماذج بسيطة جداً يؤكّد من خلالها فيراريس أنه «لا يوجد ما هو اجتماعي خارج النصوص»، أي أن الأثر بما يُضمره من امتداد زمني هو شرط الاجتماعي. يكتب فيراريس بوضوح: «لا تقوم المجتمعات على التواصل، بل على التوثيق».

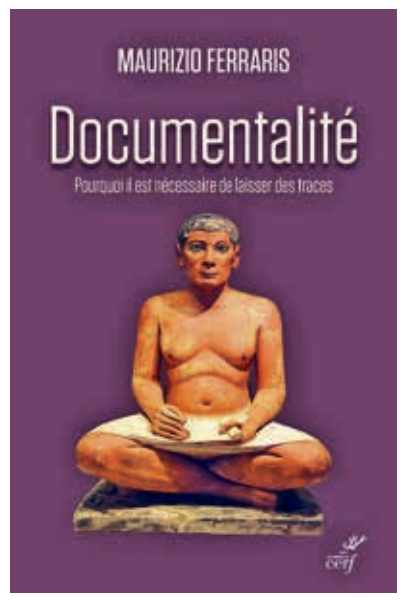

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

بانتظار إجازة فرنسية؟

مؤخراً، صدرت الترجمة الفرنسية من «التوثيقية» عن منشورات «سير»، وهو عمل صدر أوّل مرة عام 2009، ثم راجعه وطوّره مؤلفه في طبعة جديدة عام 2020 هي التي اعتمدت تها النسخة الفرنسية. منذ نهاية التسعينيات، بدأ ماوريتسيو فيراريس يراكم المؤلفات ضمن تيار يعرف بـ«الواقعية الجديدة». لم يظهر له «أثر» بعد في العربية، ربما هو مثل مفكرين إيطاليين آخرين ينتظر إجازة لغة وسيطة كالفرنسية.

لا تقوم المجتمعات على التواصل، إنما على التوثيق

يدرس شروط القدرة على إنتاج الأثر وتمريره في الزمن

المؤلف في 2013 (تـ: ليوناردو سيندامو، Getty)

نظرة أولى

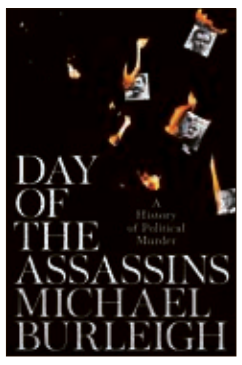

«يوم القتلة: تاريخ القتل السياسي»، عنوان كتاب صدر حديثاً للمؤرّخ البريطاني **مايكل بيرلي** عن «منشورات بيكادور». يتتبّع المؤلّف الاغتيال السياسي خلال ما يقارب مئة وخمسين سنة ماضية، في وقائع شهدتها أوروبا والولايات المتحدة والكونغو والهند وإيران وجنوب أفريقيا وفيتنام وغيرها، مستعرضاً دوافع هذه الجرائم واختلاف الروايات حول تنفيذها أو الأسرار التي لا تزال تكتنف بعضها، ويتساءل إن كانت الاغتيالات حقّقت هدفها أم أنها قلبت مسار الأحداث إلى غير ما يرتضيه القتلة، في تحليل يجمع الأخلاق والسياسة وفلسفة العنف.

تعود الكاتبة النيجيرية **سيفي عطا** في روايتها «تاجرة الخرز»، التي صدرت نسختها العربية عن «الدار العربية للعلوم ناشرون» بترجمة زينة إدريس، إلى الحرب الأهلية التي اندلعت في بلادها عام 1967، حيث تبني أحداث العمل في العاصمة لاغوس في مرحلة أعقبت الحرب بنحو ستّ سنوات، راصدةً التغيرات السياسية والاجتماعية بما فيها أنشطة التجسّس الأميركية داخل نيجيريا. يتناول العمل جانباً من قصص الجاسوسية التي تضيء على صراعات المجتمع وتأثيرات العنف على أفراده وحالة الاغتراب التي يعيشونها وعدم اليقين حيال حاضرهم ومستقبلهم.

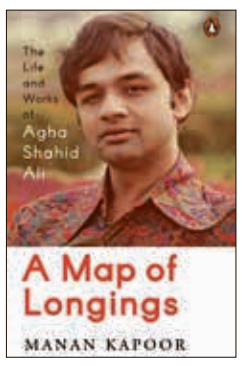

عن «منشورات فينتج» في بريطانيا، صدر حديثاً بالإنكليزية للكاتب والمترجم الهندي **منّان كابور** كتاب «خريطة الأشواق: حياة وأعمال آغا شهيد علي». يعدّ الشاعر الكشميري الأميركي واحداً من أهمّ شعراء شبه القارة الهندية. وتعرض هذه السيرة الذاتية مشواره من كشمير إلى نيودلهي، ليستقرّ به المقام مدرّساً جامعياً في الولايات المتحدة. يرى كابور أن شهيد علي - مثل أوسيب ماندلشتام - شاعرُ منفى. كما يتوقّف لدى الصداقة التي جمعت شهيد علي بالمغنية بيغوم أختر، والتي كان لها تأثير كبير في مسيرته.

«سمٌّ في الهواء»، عنوانُ آخر روايات الكاتب اللبناني **جبّور الدويهي** (1949)، وقد صدرت حديثاً لدى «دار الساقي». من أجواء الرواية نقرأ: «مع رحيلها، تتحوّل حياته إلى مسار تراجيدي يجد نفسه مستسلماً له، فيما يخطف القدر أصدقاءه واحداً تلو الآخر. فينزوي بأيامه الأخيرة في بيت يطلّ على بيروت. فجأة تدخل فراشة إلى البيت، تعيده إلى بلدته وطفولته، إلى العمر الذي ينطبع فيه كل شيء، وإلى الأمكنة التي حملها دوماً معه في تخيلاته الأدبية». من آخر إصدارات الروائي «طُبع في بيروت» و«حي الأميركان» و«شريد المنازل».

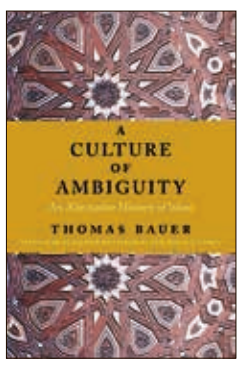

صدرت حديثاً، عن «منشورات جامعة كولومبيا» في الولايات المتّحدة، الترجمة الإنكليزية لكتاب «ثقافة غموض: تاريخ بديل للإسلام» للباحث الألماني **توماس باور**. يقترح المؤلّف قراءةً تتجاوز الثنائية القائمة بين ناظرين إلى الثقافة الإسلامية كفضاء محكوم بالدوغمائية، وبين مَن يرون أن كلّ ثمار الحداثة، من عقلانية وعلمانية، مزروعة في عصر ذهبي عرفه الإسلام قبل قرون. كما يتوقّف لدى دور الغرب، ومطالبته بـ«حقائق قطعية» وعِلمية، في نشوء إيديولوجيات إسلاموية ولائكية ليبرالية لم تعرفها الثقافات الإسلامية من قبل.

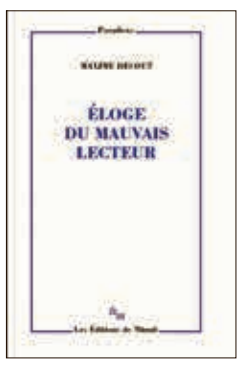

عن «منشورات مينوي» في باريس، صدر حديثاً للأكاديمي الفرنسي **ماكسيم دوكو** كتاب «في مديح القارئ السيّئ». ينضمّ الكتاب إلى حقل معاصر من الكتب حول فعل القراءة. غير أن الزاوية التي يتناول منها المؤلّف موضوعه ترتبط أكثر بفكرة السوء، التي توقّف عندها في أعمال سابقة، مثل «بكلّ سوء نيّة: عن مفارقة أدبية» (2015). يدافع دوكو عن فكرة أنّ سوء القراءة أمر ليس بالسهل، باعتباره فعل اختلافٍ ومقاومة. فالكتّاب، ومعهم الثقافة والمدارس والجامعات، يعبّدون الطرق أمام القراءة «الجيّدة»، دافعين القرّاء إلى مساحاتٍ مطروقة.

عن «دار الكتاب الجديد المتحدة» في لبنان، تصدر قريباً «الأعمال القصصية الكاملة» للكاتب والشاعر الأميركي إدغار ألن بو في ثلاثة مجلدات بتوقيع المترجم العراقي **مصطفى ناصر**. كان ألن بو «نموذجاً فريداً من عباقرة الرومانتيكيين، مع غرور شيطاني أخذه من بايرون وشغف معرفي من كوليردج»، بحسب تعريف الناشر. وظهرت تأثيرات قصصه في أعمال بودلير والرمزية الفرنسية والتحليل الفرويدي والروايات البوليسية والأفلام الهوليودية. «كان ألن بو يصر على التطرق إلى صور وأصوات هي أقرب إلى الجنون والخطيئة والموت إلى عقلانية الحياة».

لم تعد الاهتمامات المبكّرة للفيلسوف الفرنسي **ميشيل فوكو** مجهولةً لدى المهتمّين بأعماله. رغم ذلك، ما تزال المرحلة السابقة على «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي» (1964) تكتنف أعمالاً لم يسبق أن رأت النور من قبل، مثل كتاب «بيسفانغر والتحليل الوجودي»، الصادر حديثاً في طبع مشتركة بين «منشورات غاليمار» و«منشورات سوي» و«المدرسة العُليا للعلوم الاجتماعية». كتب فوكو هذا العمل منتصف الخمسينيات، وفيه تظهر رغبته في تجاوز الفهم الطب - نفسي للإنسان، عبر البحث في تحليل الدازاين كما ظهر لدى هايدغر وفي الفينومينولوجيا.